قراءة في كتاب: الشيخ الطيب العقبي لأحمد مريوش

د. أبو القاسم سعد الله

تـــــصـــــــدير

عاصرت هذا الكتاب منذ كان جنينا، كما عرفت صاحبه، الأستاذ أحمد مريوش، منذ كان في مستهل البحث في التاريخ. لذلك تجدني اليوم سعيدا إذ أقدم نفس الكتاب وصاحبه للقراء بعد أن فعلت السنين فعلها بكل منا، فأصبح الجنين شابا والشاب كهلا والكهل شيخا. أما الموضوع فهو الشامخ أبدا، نعني به الشيخ الطيب العقبي.

فهذا الشيخ يعتبر من الشخصيات المثيرة للجدل والنقاش خلافا لمعظم معاصريه من رجال الإصلاح والعلم والسياسة. ذلك أن تربيته في المشرق، والحجاز بصفة خاصة، ومعاصرته للثورة العربية هناك، وشهوده سقوط الدولة العثمانية، ثم عودته الغامضة إلى وطنه- كل ذلك جعل الدارس لعلاقته بالمشرق والمشرقيين والجزائر والجزائريين يواجه تحديا كبيرا في الحكم على شخصيته وأفكاره ودوره.

إننا إلى الآن لا ندري مدى تأثر الشيخ العقبي بالحركة السلفية (الوهابية) التي تعني اقتناعه بالثورة على البدع والخرافات والعودة إلى الإسلام السلفي، أو الإسلام الصحيح حسب تعبير أبي يعلى الزواوي. كما يعني ذلك ارتباطه بالهوى السعودي سياسيا ودعمه لنظام الملك عبد العزيز آل سعو ضد نظام الشريف حسين المعارض له. ولكننا نعلم من جهة أخرى أن الشيخ العقبي قد تبنى خلال الحرب العالمية الأولى أطروحة الثورة العربية وموقف الشريف حسين، فعانى من أجل ذلك النفي والتشريد من المدينة المنورة إلى أناضوليا

(الروم إيلي). كما قيل إنه عمل في بلاط الشريف، وكتب في جريدة (القبلة) لسان الثورة العربية. وكان إذاك شابا في حدود الثلاثين من عمره.

فما الداعي إذن إلى رجوع العقبي للجزائر فاتح العشرينات؟ لقد ترك عندئذ فيصل بن الحسين ملكا متوجا على العرب في دمشق، وربما كان مثل معظم القوميين المؤمنين بالثورة العربية، صديقا لهذا الملك. ومن جهة أخرى كانت فرنسا وبريطانيا قد بدأتا في تطبيق معاهدة سايكس- بيكو التي تعني تقسيم الوطن العربي إلى مستعمرات تحت عنوان الانتداب. ويعلم دارسو هذا العهد أن رجوع العقبي إلى الجزائر يعني التنسيق مع قنصل فرنسا في جدة، وربما في غير جدة أيضا. ونحن إلى الآن لا ندري هل ركب البحر من جدة إلى مرسيليا ثم الجزائر، أو أنه رحل إلى بلاده بالبر عبر مصر.

ومهما كان الأمر فإن العقبي قد وجد الجزائر تغلي بالأفكار السياسية والتيارات القومية. وجد فيها تيارا سياسيا يمثله الأمير خالد ورفاقه المنادون بالمساواة مع الفرنسيين مع الاحتفاظ بالشخصية الإسلامية. كما وجد ابن باديس يشق طريقه الإصلاحي في صمت وينشئ جيلا على حب العربية والإسلام والتاريخ الوطني. وكانت التيارات الشيوعية والاشتراكية كذلك تملأ الساحة ويتبناها فرنسيون "جزائريون " محاولين جذب عناصر من الأهالي إليهم ودفعهم إلى مواجهة "الأمبريالية" الرأسمالية ونصرة "البرولتياريا" أو الطبقة الكادحة، فماذا فعل العقبي في هذه الظروف الجديدة والصعبة؟

إن حياته من 1920و 1929 ما تزال غامضة، فالجزائر كانت غريبة عنه وإن كان أصله منها، فهو لا يعرف حتى قرابته، وليس له أصدقاء من عهد الدراسة ولا قادة في ميدان السياسة يربط معهم مصيره. ويبدو أنه قرر في البداية

الإقامة في بسكرة، أو ربما كانت الظروف التي أشرنا إليها هي التي فرضت عليه هذه الإقامة في طرف البلاد. لقد كانت بسكرة مدينة داخلية معزولة. فهي لا تمثل حاضرة كقسنطينة أو العاصمة أو تلمسان، تتفاعل فيها الأفكار والآراء وتصدر منها الصحافة وينتشر فيها السواح والغرباء. بدأ العقبي يتحسس طريقه بمسائل تتعلق بأملاك الأسرة التي يبدو أنها أخذت منه جهدا ووقتا، ثم أخذ ينشر الفكر الإصلاحي بقدر ما تسمح به الإدارة وقبضة الطرق الصوفية. بدأ نشاطه بدروس في المساجد، وكتابة بعض المقالات في الصحف، وربما بنشر بعض الشعر أيضا.

ثم رأى العقبي أن أية حركة لا بد لها من وسائل إعلامية فاتفق مع العناصر المتأثرة بالنهضة الثقافية العربية والعائدة من جامع الزيتونة على إصدار صحيفة باسم (صدى الصحراء)، ثم أصدر جريدة باسم (الإصلاح). وكلتا الصحيفتين عنوان مناسب للمكان والزمان، فبسكرة هي عاصمة منطقة الزيبان وعروس النخيل وبوابة الصحراء. والأفكار التي كانت تروج عندئذ لا تخرج عن "الإصلاح" سواء بمفهومه السلفي المشرقي أو بمفهومه النهضوي المحلي.

وفي الوقت الذي كان الشيخ يؤسس لنفسه قاعدة في بسكرة كان ثلة من المحسنين والمصلحين يؤسسون (نادي الترقي) بالعاصمة. فكانت سنة 1926 تاريخا هاما للجزائر، فهي لم تشهد ميلاد هذا النادي فقط ولكنها شهدت أيضا ميلاد نجم شمال إفريقيا في باريس. وفي اسم النادي نفحة قادمة من المشرق العربي حيث شاعت عبارة "الترقي"دليلا على "التقدم" والحداثة التي روج لها الأوربيون في عالمنا الإسلامي، كما أشاعوا بيننا اليوم عبارة "العولمة" والديموقراطية. وفي اسم النجم لمسة من الحركة الشيوعية وليدة الثورة البولشفية

التي لم تكتف بجعل اسم النجم شعارا لها وإنما أذاعته في الشعوب المضطهدة جراء الاستعمار مبشرة لها بيوم زاهر ومستقبل حر.

كان القائمون على نادي الترقي يبحثون لهم عن مدرس كفء يؤمن بالترقي خارج المحيط الفرنسي وواعظ ناجح طليق اللسان فصيح البيان ثابت الجنان فوجدوه في هذا الرجل الجزائري الحجازي المتحمس، وهو الشيخ الطيب العقبي الذي سمعوا عنه وقرءوا له ما أقنعهم بأنه هو الرجل المناسب لبث إشعاع ناديهم، فكاتبوه فاقتنع، وانتقل نحوهم تاركا بسكرة لجيل نفخ فيه من روحه لكي يواصل المسيرة بعده.

يمكن أن نسمي هذه المرحلة بالمرحلة الثانية في حياة الشيخ العقبي. فقد استقر الآن في العاصمة واعظا بالنادي ومدرسا بالمسجد وكاتبا في جرائد الحركة الإصلاحية، بما فيها البصائر الأولى، مشاركا في تأسيس جمعية العلماء، متحديا الاستعمار والطرقية. كان العقبي في العاصمة يوم احتفل الفرنسيون بمرور مائة سنة على احتلالهم للجزائر، ويوم أصدر ميشيل قانونه ضد التدريس والوعظ بالعربية في المساجد، ويوم انعقد المؤتمر الإسلامي في العاصمة، وكان ظهور العقبي عندئذ بهذا الحجم المتعاظم قد جعله هدفا لمؤامرات الإدارة. فالرجل كان لا يتوانى عن مهاجمة خصومه بحدة. وبذلك عزل نفسه وجعلها هدفا للسهام. وكانت الإدارة تبحث لها عن كبش فداء فافتعلت مقتل المفتي محمود كحول (ابن دالي) واتهمت به الشيخ العقبي. فكان اتهاما كافيا لسجنه ومحاكمته ثم تحييده. فلم تأت الحرب العالمية الثانية حتى كان الشيخ العقبي قد مر بمرحلة الترويض فأصبح جاهزا للقيام بدور أكثر مرونة واعتدالا.

بدأت هذه المرحلة بخروج العقبي من المجلس الإداري لجمعية العلماء متهما زملاءه بأنهم خذلوه وقت الشدة. وكان من رأيه أن مصلحة جمعية العلماء (التي بقي عضوا فيها) تقتضي الإعلان عن موالاة فرنسا ضد إيطاليا وألمانيا. وعندما لم ينجح في إقناعهم قبل بما كانت الجمعية لا تقبل به وهو إعادة إصدار صحيفته (الإصلاح) أثناء الحرب، رغم علمه أنه لا يستطيع أن ينشر فيها إلا ما يرضي الفرنسيين. كما قبل أمرا آخر لا تقبل به الجمعية وهو دخوله في عضوية لجنة الشؤون الإسلامية (الجزائرية) التي شكلها الجنرال ديغول من فرنسيين ومن مسلمين موالين، وكانت مهمة اللجنة دراسة شؤون الجزائر أو ذر الرماد في العيون قبل أن تضع الحرب أوزارها واقتراح إصلاحات ترضي الجزائريين القلقين على مصيرهم بعد الحرب. وهكذا لم يبق للشيخ العقبي دور رئسي في جمعية العلماء، ولكنه لم يتخل فيما يبدو عن دوره في الإصلاح. فقد توفي الشيخ ابن باديس وتولى بعده الإبراهيمي رئاسة الجمعية، وصدرت جريدة البصائر من جديد، ووقعت أحداث الثامن مايو الدموية، وسارت الجزائر نحو انفجار الثورة التحريرية، فكان الشيخ العقبي خلال ذلك غائبا عن المسرح يعاني العزلة والمرض إلى أن وافاه أجله سنة 1961. ولا تتوفر لدينا الآن وثائق عما يمكن أن يكون قد قام به خلال الثورة.

لقد عالج الأستاذ أحمد مريوش مسيرة الشيخ العقبي بتفاصيلها منذ رحيل أهله به إلى الحجاز إلى وفاته بالجزائر. وقد أقام دراسته على ثمانية فصول، وأغنى الدراسة بملاحق هامة، وتتبع خطوات الشيخ العقبي في الحياة العامة وناقش دوره في الحركة الوطنية على الخصوص. وهناك وثائق ومصادر رجع إليها الأستاذ مريوش لم تتوفر لغيره فأثرت الدراسة بكل يقين، ومنها الصحافة

المعاصرة، والمقابلات الشخصية والمراسلات. كما عالج علاقة العقبي بالقضايا العربية لأن هذا الشيخ كان لا ينفصل عما كان يجري أيضا في المشرق العربي والإسلامي. ولكن الأستاذ مريوش لم يكن دائما محايداً في دراسته للعقبي، فالقارئ سيلاحظ أنه كان متعاطفا مع الشيخ وكأنه كان يحس أنه قد ظلم من أقرانه ومن عصره، وأن الشيخ لم يدرس دراسة شاملة ومنصفة لأسباب سياسية وشخصية واجتماعية.

ويبدو أن الشيخ العقبي رجع إلى الجزائر "ضيفا" والضيف لا يستطيع أن يدرك كل أغوار المجتمع الذي حل به مهما أوتي من قوة الملاحظة، فلم يدرك الأفخاخ التي وضعت أمامه، كما لم يكن له من "العصبية" الخلدونية ما يقيه شر ما حدث له. وهناك من يرى أن الشيخ العقبي كان لا يتمتع بخصائص الزعيم الذي ترشح ليكونه، فهو رجل ذو ثقافة عربية إسلامية فضفاضة استقاها من حلقات المساجد والمجالس الحجازية، ومن تجارب شخصية محدودة، و لم يعش الحياة الصعبة الأولى التي عاشها الجزائريون في مدرسة الاستعمار مما أضاف إلى حواسهم حاسة أخرى هي طريقة التعامل مع بعضهم البعض ومع الإدارة الفرنسية.

ومهما كان الأمر فإن دراسة الأستاذ أحمد مريوش عن الشيخ العقبي ودوره في الحركة الوطنية ستسد فراغا كبيرا، لأنها أول دراسة أكاديمية عنه، فيما نعلم. ومن ثمة وجب التنويه بها متمنين أن تأخذ مكانها البارز بين الدراسات التي تناولت قيادات الحركة الوطنية الجزائرية في الزمن العصيب.

أسوان (مصر)، 30 مارس 2006